وصف الامام سعود

هيئته : كان سعود وسيماً ، جميلاً ، مهيباً ، وكانت له لحية طويلة ، وشوارب كثيفة ويقول « بركارت » : إن كثيراً من العرب كانوا يدعونه : (أبو شوارب) .

صوته : وكان صيّتاً ، يسمع صوته من بعيد ، ولكنه صوت حلو ، محبب إلى الأسماع ، تميل اليه الأنفس ولا تمله .

ملابسه : وكانت ملابسه مثل ملابس القوم ، ولكنها من أحسن نسيج ، وربما طيّبها بطيب .

علمه وبيانه : تلقى العلم عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وكان ذكياً ، بل عبقرياً ، سريع الحفظ ، سريع الفهم ، فلا عجب إذا عدّوه في مقدمة العلماء في زمانه بالتفسير والحديث والفقه وغير ذلك من علوم العربية ، وكان إلى ذلك خطيباً بارعاً ومحدثاً رائعاً ، أجمع العارفون على فصاحته وبلاغته وحسن بيانه .

ويقول ابن بشر : إنه (إذا كتب نصيحة إلى جميع رعاياه من المسلمين أتى بالعجب العجاب ، وبهرت عقول أولي الألباب ، وكان أول ما يصدر النصيحة بالوصية بتقوى الله تعالى ومعرفة نعمة الإسلام ، ومعرفة التوحيد ، والاجتماع بعد الفرقة ، ثم الحضّ على الجهاد في سبيل الله ، ثم الزجر عن جميع المحظورات من الزنا والغيبة والنميمة وقول الزور والمعاملات الربوية وغير ذلك ، وكل نوع من ذلك يأتي عليه بالأدلة من الكتاب والسنة وكلام العلماء ، فمن وقف على شيء من مراسلاته ونصائحه عرف بلاغته ووفور علمه .

وإذا تكلم في المحافل بنصيحة أو مذاكرة بَهَرَ عقل من لم يكن قد سمعه ، وخال في نفسه أنه لم يسمع مثل قوله وحسن منطقه) .

وقد وقفنا على مواعظ ورسائل للإمام سعود ، بعضها في ذروة البلاغة ، وبعضها كتب بأسلوب « عامي » ، مما يدل على أنه كان يخاطب الناس « على قدر عقولهم » !

هيبته وتواضعه : ويردف ابن بشر قائلاً : (.. وعليه الهيبة العظيمة ، التي ما سمعنا بها في الملوك السالفة ، بحيث أن ملوك الأقطار لا تتجاسر على مراجعته الكلام ولا ترمقه بأبصارها إجلالاً له وإعظاماً .. وهو ، مع ذلك ، في الغاية من التواضع للمساكين وذوي الحاجة ،وكثير المداعبة والانبساط لخواصه وأصحابه .)

ويروي بركارت قصة طريفة عن سعود تظهر رقة عاطفته ، فقد كان يوماً في الحرم المكي ، مع رهط من العلماء والكبار ، فلمح حفيداً له صغيراً ، فذهب اليه واحتواه بين ذراعيه وأوسعه شماً ولثماً .

سعود الكبير :

ويقول أمين الريحاني : إن الإمام سعود إنما دعي (بالكبير) لأنه خُصَّ بكثير من تلك السجايا (التي تؤهل رجل التاريخ لهذا اللقب ، فكان في عظمته متواضعاً ، وفي حكمته ورعاً وفي عدله حكيماً ، وفي سياسته جامعاً بين المرونة والمضاء ، أضف إلى ذلك ذكاءً لم يكن عادياً ، ولم يقف به عند حد السياسة ، فقد كان مولعاً بالعلم ، محباً للعلماء وللطلاب ،فلم يستنكف من عقد مجالس للمطالعة والتدريس في قصره وتحت اشرافه ، عندما يكون في العاصمة ، بل كان هو يتولى التعليم في بعض الأحيان فيدهش حتى العلماء بما كان يحسنه من علمي التفسير والفقه . وبالرغم من تعدد مشاغله ومشاكل ملكه البعيد الأرجاء كان يزور مجالس التدريس العامة فيطلع على أعمال الطلبة ويجزي منهم الأذكياء المجتهدين .

وقد كان سعود كبيراً في أخلاقه مثله في أعماله ، لا ينكر الفضل على ذويه وإن كانوا من أعاديه ،ولا يقف في إحسانه ومكارمه عند شبهات النفس وأهوائها ، مثال ذلك معاملته للشريف غالب ،على ما كان يبطنه الشريف من الكيد والغلّ فلو كان فاتح مكة غير سعود ، لو كان محمد علي مثلاً ، لما أذن للشريف بالعودة إليها بعد أن فرّ منها هارباً إلى جدة) [1] .

---

(١) أمين الريحاني : تاريخ نجد وملحقاتها .

حبه للمشورة وديموقراطيته :

لم يكن سعود ، كما وصفه بعضهم ، ملكاً مستبداً ، معتداً بنفسه ، مستغنياً برأيه عن آراء الناس ، بل كان حريصاً على مشورة العلماء والعقلاء ، وخصوصاً أبناء الشيخ ، قبل الإقدام على أي أمر ذي خطر . وربما طلب زعماء البادية للمشورة في المسائل التي تتصل بهم ، وبذلك مضى على نهج أبيه وأجداده ، بل هذا هو الأسلوب المألوف عند شيوخ البدو أنفسهم ، وكيف لا يتمسك بالمشورة زعيم مسلم تقي مثل سعود ، وقد أمر الله سبحانه نبيه المصطفى بالمشورة ، فقال في محكم تنزيله : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وقال : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

ويقول « بروكلمان » إن سعود (يعتبر مثال الحاكم العربي ، فقد كان يختلط بشيوخ البلد وعلى قدم المساواة المطلقة ، ولكنه كان قادراً دائماً على أن يفرض نفسه عليهم بمزاياه الشخصية وبخاصة الفصاحة ، التي لا تزال الى اليوم محل تقدير عظيم في بلاد العرب) [١] .

وقد يؤخذ على سعود أنه أهمل ، في الفترة الأخيرة من حكمه ، العمل ببعض النصائح التي أسديت اليه ، ولكن هذا القليل « الشاذ » لا يخل بالقاعدة .

شجاعته وخوف الأعداء منه :

كان سعود — كما وصفه ابن بشر — (ثبتاً شجاعاً في الحروب ، محبباً اليه الجهاد ، في صغره وكبره .

.. وأعطي السعادة في مغازيه ولا أعلم أنه هزمت له راية ، بل نصر بالرعب الذي ليس له نهاية ، وكل أيامه مواسم ، ومغازيه غنائم ، وقذف الله الرعب في

---

(١) كتاب « تاريخ الشعوب الاسلامية » ترجمة فارس وبعلبكي .

قلوب أعدائه ، فاذا سمعوا بغزاه ومعداه ، هرب كل منهم وترك أخاه وأباه ، وماله وما حواه) .

وقد وجدنا في كتاب أرسله والي بغداد علي باشا الى السلطان العثماني هـــذه الكلمات التي تظهر شدة خوف الولاة العثمانيين من شجاعة سعود وفتكه ، قال :

(.. إنه كالصقر ، سريع الاختطاف ، طويل اليد ، شديد البأس) .

ويقول أمين الريحاني : (لم تهزم لسعود راية في غزواته كلها وفتوحاته ، ولا حالت دونها أوعار شبه الجزيرة وأهوال بواديها ، فقـد اجتازت جيوشه حتى (الحرّة) ، قال ابن بشر : « سار بالمسلمين يعتسف من الفيافي السهل والصعاب ، ويطوي من أديم الأرض كل موحشة يباب ، ولا يسمع فيها غير أصوات العرج والذباب ، يضلّ فيها القطا ، ويحير الخريت في مهامها ، لا يرى بقفرها أنيس ، ولا يبصر في رحبها أثر العيس . مظمأة يحاكي لون أديمها زرقـــة السماء ، مغبرة الأفق والأرجاء ، يحس الساري بما للجن فيها من الغمغمة والزمزمة . وبعـــد إنضاء الأعوجيات ، وإرقال المهريات ، وسباسب الفلاة ، تبين له سواد الحرة».

أما في غزواته وفتوحاته فلم يكن ليخرج عن القاعدة : ان الحرب خدعة . وللعرب في ذلك أساليب تقترن فيها السذاجة بالدهاء ، فقد كان سعود اذا أراد أن يغزو الى جهة الشمال يظهر أنه يريد الجنوب أو الغرب ، والعكس بالعكس. وعندما نزل الرقيعة في غزوة الأحساء أمر رجاله أن يوقد كل واحـد منهم ناراً وأن يطلقوا كلهم البنادق عند طلوع الشمس ليرهبوا أهلها ، فلما بزغت الشمس فعلوا ذلك دفعة واحدة فارتجت الارض وأظلمت السماء وأسقط كثير من الحوامل في الاحساء . هذه الطريقة في الحرب ، طريقة الإرهاب والترويع ، مألوفة عند العرب وخصوصاً عند أهل نجد .)

حدّته أحيانا :

ويذكر بركارت ، عن رجال عرفوا الامام سعود معرفة تامة ، أنه كانت فيه «حدة» ، وإن كان سريع الرضا. ويقال إنه كان يخاف على نفسه من الاسترسال في الغضب ، فكان يوصي الامراء والشيوخ المقربين منه أن يحولوا بينه وبين الرجال الذين يثيرون غضبه .. وكان أكثر شيء يكرهه الكذب ، جاء مرة رجل بقصة مكذوبة ،فحاول سعود أن يحمله على قول الحقيقة ، فلم يفعل ، فنهض اليه سعود يشتمه ويلكمه ، فحال الأمراء بينه وبين الرجل ، ولما « فترت » ثورة غضبه وهدأ ، التفت اليهم شاكراً لهم حسن صنيعهم .